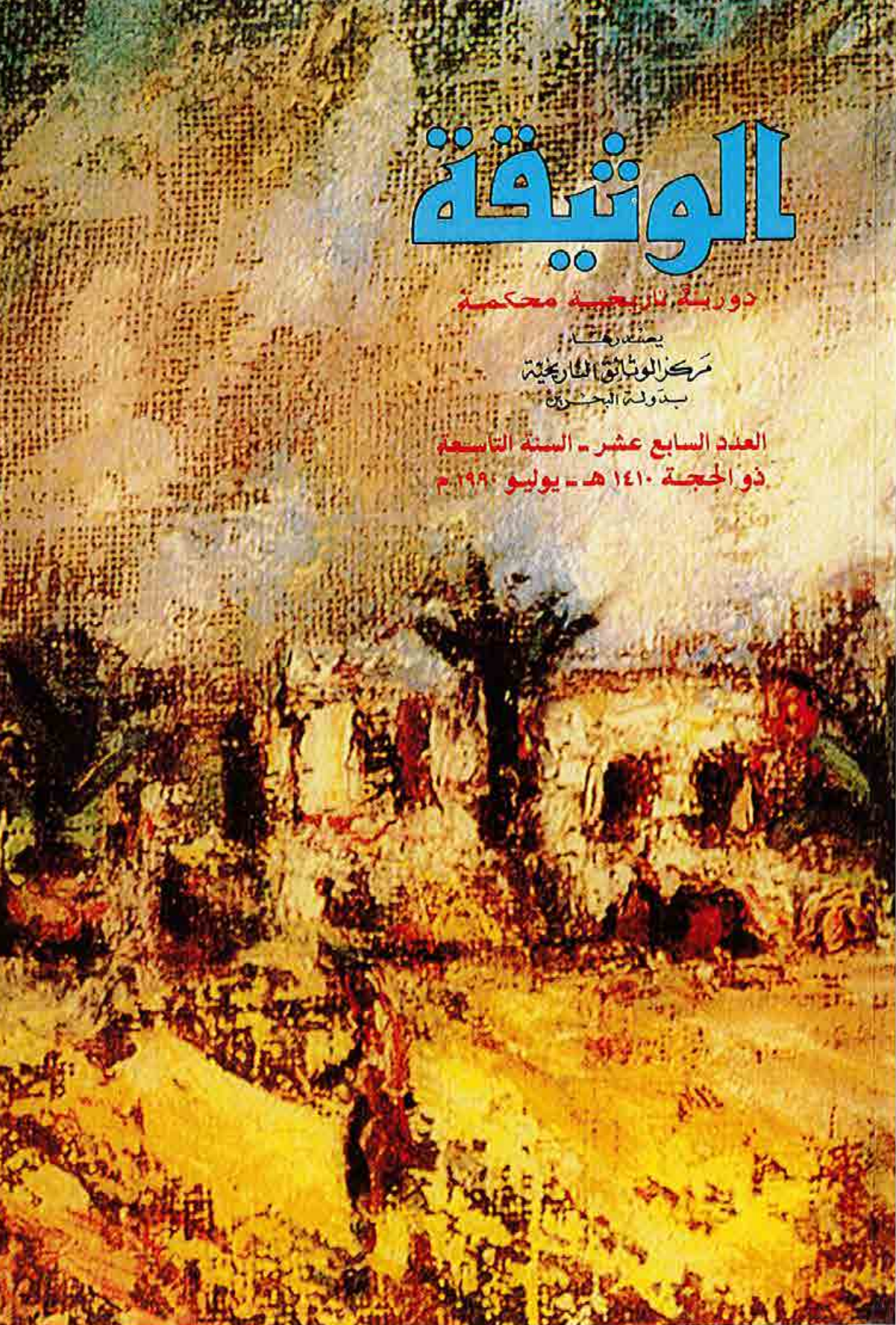
الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد السابع عشر - السنة التاسعة
ذو الحجة ١٤١٠ هـ - يوليو ١٩٩٠ م

وَثائق عُثمانية غير

عن البصرة وأسطولها وصلاتها

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل جوانب من احوال مدينة البصرة ومحاولات اصلاحها ، لا سيما اوضاع الاسطول، والدور الذي قام به متصرف البصرة معشوق باشا بخصوص ايجاد صلات متينة وعلاقات وطيدة ومستمرة مع الكيانات العربية القائمة في الخليج العربي اواسط القرن التاسع عشر ، ومدى النجاح المتحقق في هذا المجال ، واسباب ذلك ، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة بالنسبة لسياسة الباب العالي في اسطنبول الرامية الى امتداد السيادة العثمانية في الخليج العربي والجزيرة العربية في وقت اشتد فيه الصراع وازداد التنافس بين القوى الدولية والمحلية لايجاد مواطىء قدم ومصالح اقتصادية وسياسية دائمة في هذه المنطقة الحساسة والمهمة من عالم القرن التاسع عشر .

ولا بد من الايضاح بدءا ان اطار هذا البحث واتجاهاته محدد بحدود المعلومات التي امدتني بها الوثائق العثمانية المتوافرة لدي والتي حصلت عليها من ارشيف الباب العالي في

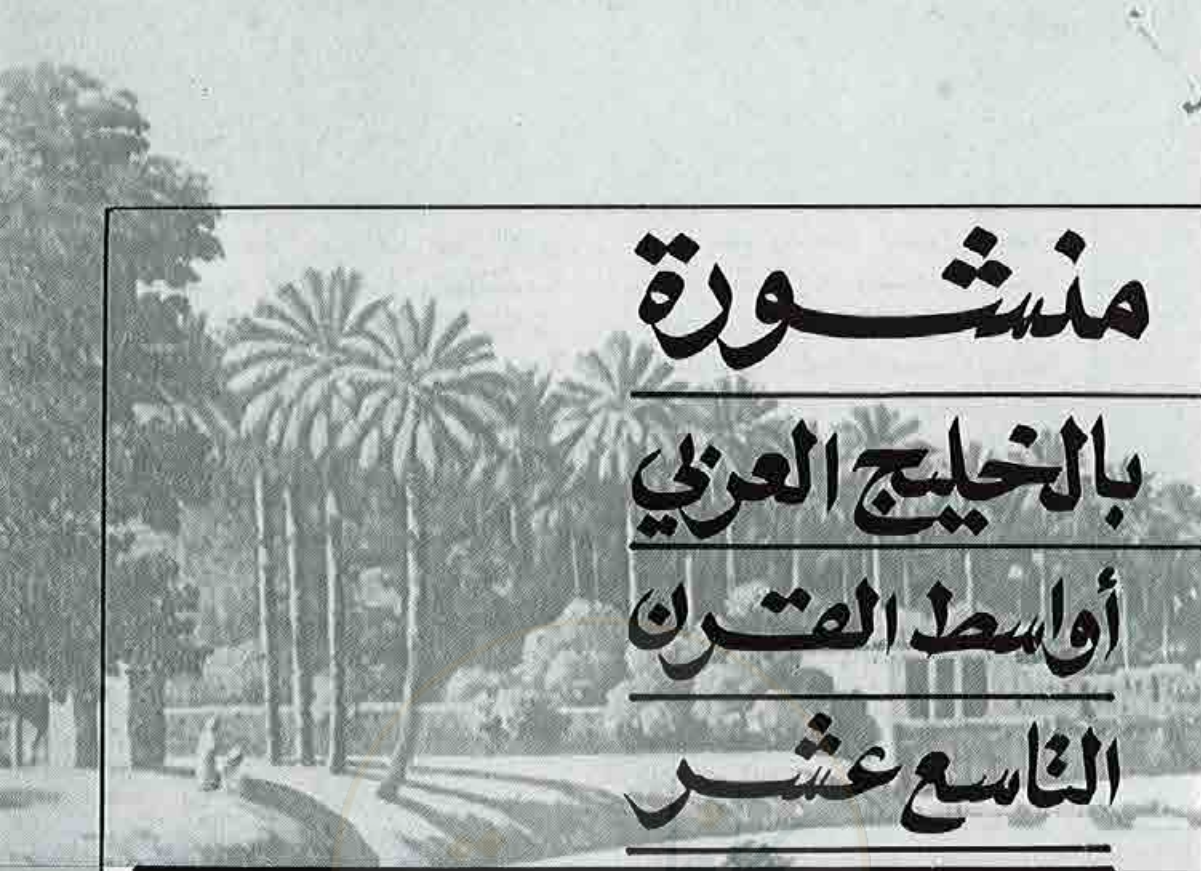

منشورة بالخليج العربي أواسط القرن التاسع عشر

بقلم : الدكتور مهدي جواد حبيب البستاني (العراق)

اسطنبول (المديرية العامة لارشيف رئاسة الوزراء ـ الصدارة) ، وهذه الوثائق ـ وهي باللغة التركية القديمة وتنشر لاول مرة ـ تمثل المراسلات المتبادلة بين متصرف البصرة والصدارة ، والتقارير المرفوعة للصدارة من المتصرف المذكور ومن المندوب العثماني في لجنة تحديد الحدود مع ايران درويش باشا ، ورسالتين باللغة العربية موجهتين من سلطان مسقط وعمان سعيد بن سلطان وابنه ثويني الى معشوق باشا ، اضافة لما يتطلبه البحث من معلومات توضيحية ومكملة للنقص الحاصل في معلومات الوثائق المذكورة مما تضمنته الكتب والدراسات المنشورة المتخصصة في شئون الخليج العربي ، أملا ان تتضح جوانب اخرى من خلال الابحاث المطروحة ، ومما سوف انشره من وثائق اخرى في البحوث القادمة بعون الله وتوفيقه .

نظرة في احوال البصرة واسطولها :

شهد الخليج العربي ، بحكم موقعه الجغرافي المتميز واهميته التجارية والستراتيجية [1] في القرنين السابع عشر والثامن عشر

صراعا حادا وتنافسا بين القوى البحرية البرتغالية والهولندية والانجليزية والفرنسية . وقد تنازعت السيادة على المنطقة قوى عربية متعددة : كالعمانيين (اليعاربة والبوعلي والبوسعيد) والقواسم والوهابيين وبني كعب . وحاول الايرانيون مند عهد نادر شاه (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) تأسيس قوة بحرية فعالة في الخليج لغرض هيمنة ايرانية على المنطقة والتوسع باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيد انهم فشلوا فشلا ذريعا في هذا الميدان .

اما القوة البحرية العثمانية في البصرة فقد كانت متخلفة وضعيفة ، ولم تقم بدور يذكر في التأثير على مجريات الصراع الدائر وتوجيه مساراته . وترتب على ذلك انحسار نفوذ ولاة بغداد والبصرة عن منطقة الخليج العربي وتعرض الامن الوطني للعراق لمخاطر عديدة ، لا سيما منطقة البصرة التي تعرضت للحصار والاحتلال الاجنبي عدة مرات نتيجة لاهمال القوة البحرية وضعف القوات البرية .

واستمر الوجود العثماني في الخليج العربي حتى اواسط القرن التاسع عشر ضعيفا وهامشيا ، بل لا يكاد يذكر في خضم صراع الستراتيجيات الدولية المحتدم حينذاك . وذلك يعود لعدة اسباب ، منها : ضعف الاسطول العثماني بوجه عام وضعف اسطول البصرة بوجه خاص ، وانشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية المستعصية : كمشكلة محمد علي باشا والي مصر واندلاع الانتفاضات القومية في ولايات البلقان والوطن العربي ، وحروبها الخارجية مع روسيا وايران . وقد جرت عدة محاولات للتوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي ، الا ان ضعف القدرات المالية والعسكرية للدولة العثمانية ، ونجاح السياسة البريطانية في ابعاد العثمانيين عن المنطقة المذكورة ، باشغالهم في الصراع مع ايران والوهابيين وقوات محمد علي باشا حال دون انجاح ذلك التوجه .

كانت البصرة من مراكز التجارة المهمة في الشرق ، حيث تكدست في اسواقها ومخازنها مختلف السلع والبضائع الهندية والصينية والاوروبية المتدفقة عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط ، والمنقولة منها الى بغداد والموصل وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب والاناضول وايران عن طريق نهري دجلة والفرات ، او القوافل البرية وصولا الى سواحل البحر المتوسط فأوربا ، عن طريق وادي الفرات الى بيروت وموانىء الساحل الفينيقي مرورا بدمشق وطريق وادي دجلة الى انطاكية والاسكندرية مرورا بحلب .

كما ان صادرات تلك الاقطار كانت تتجمع في مخازن البصرة لتنقل منها الى الهند . وهكذا كانت التجارة تشكل موردا اساسيا لخزينة بغداد واقتصاديات الولاية .

وكان الاسطول العثماني في البصرة يتولى مهمة الدفاع عن المدينة وحماية الملاحة في الخليج وشط العرب ونهرى دجلة والفرات وانيطت مهمة قيادته الى ضابط يلقب بـ (قيودان باشا) اي قائد الاسطول ، ويأتي بالمرتبة الثانية بعد متصرف البصرة من حيث التسلسل الاداري ، وكانت له دار خاصة تقع على شط العرب في قرية المناوي ، تصطف امامها قطعات الاسطول ، وهي سفن صغيرة مسلحة تعرف بـ (الثكنات) . تتميز بقعرها المسطح المطلي بالقار . وكانت هذه السفن تشكل العمود الفقري لاسطول البصرة حتى سنة ١٧٦٥ ، وتم استبدالها بعد ذلك بالغلافات وبانواع اخرى من السفن ، لمواجهة التطورات البحرية الجديدة في شط العرب والخليج العربي[٢] .

وفي اواخر عام ١٧٧٣ انضمت الى اسطول البصرة سفينتان كبيرتان نسبيا تم بناؤهما في الهند ، تحمل كل منهما اربعة عشر مدفعا ، واطلق عليهما اسما دجلة والفرات . ومع ذلك فان هذا الاسطول ظل دون مستوى الاهداف المطلوبة منه بسبب النقص في عدد السفن التي يتألف منها ، وتدني نوعيتها ، ونقص الاعداد والكوادر الفنية والعسكرية المستخدمة على ظهر هذه السفن وقلة خبرتها . كما حاول والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ - ١٨٠٢) في بداية حكمه تعزيز اسطول البصرة فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي بناء ست غلافات كبيرة تحمل كل واحدة منها ستة مدافع ، بيد ان تلك المحاولة كانت بدون جدوى لان الانجليز لم تكن من مصلحتهم في ذلك الوقت تعزيز القدرات العسكرية لولاة بغداد وذلك لاخضاعهم لمشيئتهم وابتزازهم ، فادعوا انهم يخشون وقوع تلك الغلافات بأيدي اعداء والي بغداد واعداء الانجليز من القواسم وكعب .[٣]

تقرير معشوق باشا :

بدءا من منتصف القرن التاسع عشر اخذ العثمانيون يبدون اهتماما وان كان سطحيا بشئون الخليج العربي ، ويرقبون تطورات الاحداث فيه ، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والاجنبية المتواجدة في هذه المنطقة الحساسة من عالم القرن التاسع عشر ، فشرعوا بارسال المبعوثين الى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو

إسميا أو التعاون مع الدولة العثمانية على اقل تقدير بصفتها دولة اسلامية . وانطلاقا من هذا الموقف الجديد في السياسة العثمانية كلف الباب العالى متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة ، فبادر الاخير الى ارسال عدة اشخاص الى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الامراء والمشايخ العرب .

فورد في تقرير معشوق باشا المرفوع الى الصدارة في اواخر عام ١٨٥٠ م معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة امارة الكويت ، حيث يشير الى ان بعض عربان نجد كانوا يأتون الى الكويت لاجل صيد الاسماك واثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة شيدوا لهم بيوتا صغيرة من القصب ، تحولت بمرور الزمن الى بيوت مبنية باللبن . وكان منشأ هذه الامارة في اواخر القرن السابع عشر ، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد اصبحت ملجأ ومسكنا آمنا للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها ، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت ، وكان اهالي الامارة غير مكلفين بدفع اي نوع من الضرائب ، عدا الجمرك المفروض على الامتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر ، وبمعدل ريالين عن كل نوع ، وبلغ وارد الجمرك مائة الف ريال سنويا .

ونظرا لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبيا ، لذا كان اغلب التجار يفضلون انزال تجارتهم في الميناء المذكور ، ونقلها برا الى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها . وكان امير الكويت الشيخ جابر يبادر الى تقديم الامدادات والمساعدات الى اهالي البصرة برا وبحرا عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين او تسلط الكعبيين ، ومقابل هذه الخدمة كان امير الكويت يحصل على مائة واربعين كارة[٤] من التمور سنويا من حكومة البصرة .

وذكر معشوق باشا ان مسألة ربط الكويت بادارة البصرة واستثمار موارده الاقتصادية لحساب خزينة البصرة وقطع عطية التمور السنوية رهين بتقوية اسطول البصرة وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على اقل تقدير . واضاف الى ان اهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة ، الا ان موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع الى مشايخه الذين لا يراجعون ادارة البصرة باي موضوع او مادة ، واذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية على الرغم من

اظهارهم الميل الى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافي والديني ، فان واقع الحال يقتضي اظهار سطوة السلطنة السنية وجانب من قدراتها العسكرية ، لكي لا يعطوا اذنا صاغية لدسائس بعض الاطراف الدولية والمحلية .

وبخصوص مقاطعتي الحسا والقطيف اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود تشير معلومات معشوق باشا ان الامير السعودي يستوفي منهما سنويا مائة الف ريال (اربعة آلاف كيس) باسم بدل جمرك وميري ، مقابل مبلغ زهيد يدفعه الى خزينة جدة وانه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمائتي عسكري في كل منهما . واستنادا الى افادة عدد من ابناء الحسا والقطيف القادمين الى البصرة فإن الاهالي هناك مستاءون ومتنفرون وراغبون بالانضواء ، تحت الحكم العثماني ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على اهمية وضرورة بناء الاسطول وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات .

وقد تضمن تقرير معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، عدة مقترحات لاصلاح احوال مدينة البصرة وانتشالها من حال التردي الذي اصابها والعمل على تطويرها حسب الامكانات المتاحة . ومما يذكر ان اهالي البصرة والعاملين فيها من أتراك واجانب كانوا يعانون من وخامة الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة بسبب احاطة المدينة بالمستنقعات والبحيرات الناتجة من طغيان نهر الفرات وانهيار بعض السدود التي كانت تتحكم بتوزيع فائض مياهه ، لدرجة ساد فيها التفكير بضرورة نقل البصرة الى موقع آخر . فقد ارسلت الصدارة بناء على طلب والي بغداد السابق لجنة مكونة من قائم مقام مكتب الحربية علي بك ، والخواجه الثاني للمكتب المذكور أمين افندي . وقد تضمن تقريرهما تحديد سبب وخامة طقس البصرة بوجود المقبرة العامة بين محلات المدينة ، وجريان المياه الآسنة والثقيلة في ازقة المدينة وعدم تطهير مضيق العشار منذ مدة طويلة ، وتجمع المياه داخل الحدائق الموجودة بالمدينة وعدم تصريفها ، وتعفنها ، ووجود سوق الاسماك وسط المدينة وما يبعثه من عفونة وروائح كريهة تزكم الانوف ، وانهدام السدود القريبة من البصرة والمعروفة بإسم (سلحة) وتحول مجري نهر الفرات عن مجراه القديم مما ادى الى انتشار المستنقعات والبحيرات وتعرض المدينة الى وباء الكوليرا الذي اهلك وشرد عددا كبيرا من اهاليها وتحولت بيوتهم الى خرائب ومزابل ، وحدوث ظاهرة المد والجزر باستمرار .

لذا تقرر في الصدارة اختيار موقع العشار لبناء المدينة الجديدة عليه بصورة تدريجية وكمرحلة اولى تقرر بناء جامع يحمل اسم السلطان العثماني ، ودائرة للجمرك ، ومقر القائمقام ، وعدد مناسب من المغازات والدكاكين . وحمام يوقف لحساب الجامع . على ان تتم تسوية تكاليف هذه المنشآت ، البالغة بصورة تخمينية ثلاثة آلاف كيس أقجة من الحاصلات الجديدة للمدينة .

ولكن معشوق باشا ، بعد توليه لمهام منصبه ومطالعته لجميع التقارير المكتوبة حول اصلاح احوال البصرة واطلاعه ميدانيا على واقع المدينة اقنع الصدارة بامكانية معالجة مشاكل المدينة دون الحاجة الى نقلها الى مكان آخر . فعمل على ازالة الاسباب المؤدية الى وخامة الجو . وطلب من الصدارة ارسال طبيب وصيدلي لمعالجة المرضى ، حيث ينعدم وجود الطبيب في المدينة وقتذاك ، كما قام ببناء دوائر للحجر الصحي «تحفظ خانه» والجمرك وخان وعدد من الدكاكين في العشار ، وابدى مساعدته لكل راغب من الأهالي في بناء دور لهم في الموقع المذكور . وتعهد معشوق باشا للصدارة بانه سيعمل على اتخاذ التدابير والاجراءات المؤدية الى عودة المهاجرين من اهالي البصرة الذين تركوها في الازمان السابقة وسكنوا في الكويت والمحمرة وغيرهما . وحدد اسباب هجرة الاهالي بما يلي :

١ ـ الظلم والتعدى الذي لحق بهم .
٢ ـ عدم تمكن حكام البصرة السابقين من انقاذ الأهالي من تعديات العشائر .
٣ ـ وجود ادارة حرة ومستقلة في كل من الكويت والمحمرة جذب اهل البصرة اليهما .
٤ ـ تعرض البصرة الى الوباء عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م ، والكوليرا عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م .
٥ ـ وخامة جو البصرة الزائد عن التحمل بسبب انتشار المستنقعات والبحيرات وامتلاء الأزقه بالمياه الآسنه والثقيله وانتشار الخرائب والمزابل وما شابه.

وبذل معشوق باشا مجهودات كبيرة ـ حسب ما ذكر في تقريره من اجل اعادة النازحين والمقيمين في الكويت والمحمرة من اهالي البصرة اليها ، فاتصل سرا بهم ورغبهم على العودة الى بيوتهم واستخدم اقاربهم واصدقاءهم لتحقيق هذا الغرض كما عمل على منع تعدي عشائر المنتفق على الحاصلات الزراعية العائدة الى اصحاب بساتين النخيل في منطقة البصرة (٥).

بيد ان الباب العالي ـ الذي كان

مشغولا بحرب القرم مع روسيا ـ وجد نفسه عاجزا عن تلبية مطالب متصرف البصرة ولم يجد بدا من التوصية باتخاذ التدابير الممكنة لاستمالة اهالي الخليج العربي وترغيبهم بقبول التابعية للدولة العثمانية (السلطنة السنية) .[٦]

تقرير درويش باشا :

من خلال قيام المندوب العثماني في اللجنة الدولية لتحديد الحدود مع ايران بمهام عمله الذي يتطلب التجوال والمشاهدة الشخصية للمناطق المتنازع عليها من اجل اعادة ترسيم الحدود العراقية ـ الايرانية اطلع درويش باشا عن كثب على الاوضاع المزرية لاسطول البصرة وقواتها العسكرية البرية والبحرية فبادر الى تسجيل ملاحظاته ورفعها بتقرير مستعجل الى الصدارة في ٢١ ربيع الثاني ١٢٦٦ هـ / ٦ مارس ١٨٥٠ م بناء على التعليمات السرية التي زودته بها الاجهزة الخاصة في الباب العالي عند تكليفه بهذه المهمة والتي كانت تقتضي جمع المعلومات وتقصى الحقائق عن احوال واوضاع ايالات العراق زيادة على مهمته الاساسية .

ابتدأ درويش باشا تقريره بتبيان اهمية موقع البصرة ، فذكر ان البصرة من المواقع التي تتطلب العناية الكبيرة والاهتمام الاستثنائي نظرا لاشرافها على عدد كبير من القرى والمقاطعات وديار العشائر ولمجاورتها ايران وعشائر عربية غير منقادة (كعب والمنتفق وبني لام) ، مما يتطلب وجود قوات برية وبحرية قادرة على تحقيق الامن الداخلي وحماية الحدود البرية ومياه شط العرب وخليج البصرة . بيد ان واقع الحال يشير الى خلاف المطلوب ، اذ ان موجود القوات العسكرية في البصرة لا يتعدى ٧٠ ـ ٨٠ جنديا من صنف المدفعية و٢٥٠ جندي مشاة (باشبوزق بيادة) ، علما ان اكثر من نصف صنف المدفعية المذكورين اعداد غير صالحة للخدمة العسكرية لكونهم مرضى ومعوقين اما المدافع فهي على قلتها فانها من النوع القديم وينقصها بعض قطع الغيار (المواد الاحتياطية) .

وتناول في تقريره واقع اسطول البصرة ، فذكر انه يتألف من ست قطع بحرية كبيرة الا ان احداها غير صالحة للخدمة على الاطلاق وقد سحبت الى البر في مضيق العشار لاجل تعميرها فاهملت ، وهي الآن معرضة للتلف يوما بعد يوم ، والسفينة الاخرى يمكن استعمالها بعد اجراء صيانة واسعة عليها . اما السفن الاربع الباقية فهي ايضا غير صالحة ليس لركوب البحر فحسب وانما غير صالحة للاستخدام حتى في

مياه شط العرب ، وينقص اشرعتها جميع الادوات اللازمة لتشغيلها لذلك وضعت كل واحدة من هذه السفن الاربع في موضع معين لتحصيل الرسوم الجمركية .

في حين يتجول في خليج البصرة اسطول انجليزي يتألف من ٥ ـ ٦ قطع بحرية نوع «بريق» و«قروت» بحجة ملاحقة القراصنة ومنع تجارة الرقيق وحماية صيادي اللؤلؤ . وكان قائد الاسطول الانجليزي يقيم في البصرة او في ميناء بوشهر او البحرين خلال تجوال سفنه في مياه الخليج وشط العرب حتى ان القائد المذكور يرابط قبل عدة ايام من تاريخ كتابة هذا التقرير بسفينة القيادة التابعة للأسطول الانجليزي امام ميناء المحمرة .

واستنادا للمعلومات المتجمعة لدى درويش باشا فان النفوذ الانجليزي امتد الى عدة جزر في سواحل خليج البصرة ومنها جزيرة «قشم» الواقعة في مضيق هرمز ، والتي اقام الانجليز على الجانب الشمالي منها ابنية ومنشآت عديدة وحتى لو لم تحصل هذه التطورات فان من اهم مهام السلطنة السنيَّة ازاء موقع مهم كالبصرة ، التي تعتبر من المناطق الحدودية الرئيسية والموانىء الكبيرة تهيئة اربع سفن حربية على الأقل ، نوع «فرقتين وقروت وبريق» وسفينة بحرية تجارية كبيرة ، وباخرتين للنقل النهري في دجلة والفرات تعملان بين بغداد والبصرة ومدخل الخليج «مضيق خليج البصرة» واعادة تنظيم وتشغيل ترسانة البصرة القديمة .

واضاف درويش باشا انه في حال تعزيز القوات البرية والبحرية في هذه المنطقة فان كل امور واوضاع ايالة البصرة سوف تسير في الاتجاه الصحيح ويتحقق الاصلاح المطلوب والرقي المنشود وسوف تعود الحسا والقطيف اللتان كانتا تعدان قديما من مضافات البصرة ثم خرجتا من التابعية العثمانية بسبب تسيب وضعف الادارة في العراق ، الى السيادة العثمانية ، وانه لامر واضح ان يبادر سلطان مسقط الذي يخشى الانجليز ويخافهم الى طلب حماية هكذا دولة اسلامية عظيمة .

وبقصد تسهيل اعادة تنظيم اسطول البصرة اقترح درويش باشا تعيين «مباشر» للاشراف على ذلك وعند صدور الامر السامي ببناء السفن والبواخر المذكورة في بومباي وحين اكمالها يصار الى تعيين قائد مناسب لقيادة الاسطول من ضباط قيادة البحرية في اسطنبول مع عدد مناسب من الضباط المختصين بفنون البحر لتعليمهم وتدريب العساكر والسفانة المحليين . ولما كان تحقيق هذا الامر يحتاج الى وقت ليس بالقصير فان

المصلحة العامة للدولة تتطلب الايعاز الى قائد فيلق الحجاز والعراق ليقوم بارسال طابورين مشاة من القوات النظامية ، ومقدار مناسب من جنود الفرسان والمدفعية ، مع عدد من المدافع الى البصرة كتعزيز سريع لقدراتها الدفاعية .(٧)

وفي مذكرته المرفوعة الى متصرف البصرة معشوق باشا في غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م اشار درويش باشا الى وجود سفينتين من اسطول البصرة وهما فتحعلي وصالحي ، ترابطان امام المحمرة وفي نهر الكارون وامام مضيق نهر بهمشير .(٨)

صلات البصرة بسلطنة مسقط وعمان :

في عام ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١ كلف الباب العالي متصرف ايالة البصرة معشوق باشا بدراسة احوال منطقة الخليج العربي ، ومعرفة مدى امكانية مد جسور التعاون والالتقاء مع الكيانات المحلية القائمة هناك ، لا سيما مع سلطان مسقط وعمان السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١ ـ ١٨٥٦) ، والعمل على جذبها الى حظيرة الدولة العثمانية . وكان الباب العالي يرصد حينذاك دخول سعيد بن سلطان في دائرة واسعة من العلاقات والمصالح مع سائر الدول ، على الرغم من تظاهره بالميل نحو الدولة العثمانية ، لذا طلب من متصرف البصرة مراسلته سرا من اجل استمالته الى الصف العثماني ، ومعرفة حقيقة الاخبار الواردة الى مسامع الخارجية العثمانية حول حدوث نزاع بين سلطان مسقط والانجليز بسبب عدم ايفاء الاولى بالاتفاق المعقود معه من جانب بريطانيا بخصوص منع تجارة العبيد (٩).

افاد معشوق باشا في مذكرته الجوابية المرسلة الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ / ١٥ حزيران ١٨٥١ ، استنادا الى المعلومات المتجمعة لديه من التجار العاملين بين البصرة ومسقط ، ان علاقات سلطان مسقط مع الدول الاجنبية متأتية من الصلات والمعاملات التجارية القائمة بين سلطنة عمان والموانىء الهندية القريبة من سواحل بلاد العرب الجنوبية الشرقية . وبحكم خضوع بلاد الهند للهيمنة البريطانية ، فان الضرورة تقتضي عقد العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بريطانيا كذلك واحتمال ميل سلطان مسقط للدولة العثمانية يقع في اطار السياق السابق نفسه الذي تحتمه المصالح التجارية التي تقوم وترتكز عليها سلطنة مسقط وعمان وبغية الوقوف جليا على هذا الحال ومد جسور الاتصال مع السلطنة المذكورة ارسل

معشوق باشا رسالتين: احداهما الى السلطان سعيد الموجود حينذاك في عمان ، والاخرى الى ابنه ثويني وكيله في مسقط ، تضمنتا عبارات المودة والاستفسار عن الخاطر ، وكيفية وصوله الى البصرة ومباشرته مهام منصبه .

يلاحظ هنا ابتعاد متصرف البصرة معشوق باشا ، بناء على توجيهات الباب العالي عن الاشارة الى المسائل المتعلقة بمصالح الدولة العثمانية في الخليج العربي في رسالتيه المذكورتين وذلك تجنبا من وقوع الطرف الآخر في دائرة سوء الفهم او الشكوك في المقاصد العثمانية التي تنطوي عليها سياستهم الجديدة في المنطقة المذكورة . كما يلاحظ في هذه الوثيقة وفي الادبيات العثمانية كافة ورود اسم سعيد بن سلطان مقترنا بلقب «الامام» بينما المعروف ان لقب الأمامة لم يحمله من اسرة البوسعيد الا مؤسس هذه الأسرة الامام احمد بن سعيد (١٧٤٤ ـ ١٧٨٣) الذي قضى على حكم اسرة اليعاربة في عام ١٧٤٤ وورث اللقب من بعده سعيد (١٧٨٣ ـ ١٨٠٣) دون انتخاب او مبايعة او اعتراف . وقد اتخذ حكام البوسعيد المتأخرون لقب «السيد» [١٠] «كما شاع استخدام لقب «السلطان» لا سيما في الادبيات والكتابات والتقارير الاوروبية ، ويبدو ان الاتراك العثمانيين فضلوا استخدام لقب «امام» لانهم لا يعترفون بالسلطنة والقاب السلطان الا لملوكهم من آل عثمان .

وفي الوقت والسياق ذاته ارسل معشوق باشا رسالة ثالثة الى احد تجار البصرة البارزين ، يدعى عبدالله جمال الجلبى كان مقيما منذ فترة طويلة في سلطنة مسقط وعمان وبالرغم من وصول رسالة ثويني الجوابية المؤرخة في الرابع عشر من شوال ١٢٦٦ هـ / ٢٣ آب ١٨٥٠ م الى البصرة في شهر رمضان ١٢٦٧ هـ / حزيران ١٨٥١ م الا ان معشوق باشا آثر تعليق ارسالها الى الصدارة لحين ورود رسالة والده الجوابية وعندما عاد السيد سعيد بن سلطان من عمان الى مسقط في ٩ رجب ١٢٦٧ هـ / ١٠ مايو ١٨٥١ م بادر الى تحرير رسالة جوابية الى متصرف البصرة مؤرخة في ٢٩ رجب ١٢٦٧ هـ/ ٣٠ مايو ١٨٥١م وصلت الى البصرة في الشهر التالي لتحريرها ، وفيما يلي نصها الحرفي مع نص رسالة ثويني :

الجناب المستطاب ذو الشوكة والاجلال العالي جاه الافخم الاحشم الاخ معشوق باشا المكرم دام اجلاله وحرسه الله سبحانه من شر الاشرار وامنه من عواصف الاكدار ورواجف الاخطار بحق محمد سيد الابرار أمين

رب العالمين :

اما بعد ، فالغرض الاهم والمطلب الاتم من تحرير رقيمة الوداد وتأنيق انيقة الاتحاد هو السؤال عن احوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الاخلاق والصفات حرسها رب الارضين والسموات وفي ابرك الاوقات واشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبىء عن الود القويم والاتحاد المستقيم فأسر الخاطر واقر الناظر وجمع ما اشتمل عليه من غرر المعاني ودرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ونحن قد وصلنا مسقط في ٩ من رجب وان شاء الله المحبة من الطرفين ثابتة الاركان مشيدة البنيان ، لا يغيرها غير ، ولا يشوبها كدر والمأمول ادرار المراسلات مع شرح احوال سلامة تلك الذات وبما يبدو من المهمات بعون الله ليقضي بمجرد الاعلام والسلام خير مبدأ وختام .(١١)

هذا من المحب

الواثق بالله عبده سعيد بن سلطان

تحرير ٢٩ في رجب الاصم سنة ١٢٦٧

الجناب المستطاب ، مركز كرة الأبهة والرأي ، ثمرة شجرة العزة والسياسة نتيجة الاشراف من آل عبد مناف ، الافخم المحترم معشوق باشا المكرم والي حكومة البصرة ونواحيها دام اجلاله وحرسه الله سبحانه وتعالى من شر الاشرار وامنه من عواصف الاكدار ورواجف الاخطار بحق محمد سيد الابرار آمين رب العالمين :

اما بعد ، فالغرض الاهم والمطلب الأوفى الأتم من تحرير رقيمة الوداد وانيقة المودة والاتحاد هو السؤال عن احوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الاخلاق والصفات ، حرسها رب الارضين والسموات ، وفي ابرك الاوقات واشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبىء عن الود القويم والاتحاد المستقيم فكان اعز واصل واجل نازل ، وجميع ما اشتمل عليه من درر المعاني وغرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ، لا سيما من طرف وصولكم الى البصرة وتفويضكم أمر ايالتها وحكومتها مع جميع ملحقاتها وعشيرة المنتفك ، فقد استبشرنا بذلك غاية البشارة وسررنا بذلك كثيرا ، فكذلك من طرف اثبات المحبة والمودة فنحن من جانبنا ثابتة الاركان لا يغيرها غير ولا يشوبها كدر ما دامت الارواح في الصور . والكتاب الذي بأسم جناب سيدنا الوالد حفظه الله وصلنا حال تحريره لنرسله لجنابه ان شاء الله ليكون معلوما .. هذا والمأمول ادرار المراسلات مع شرح احوال سلامة تلك الذات وبما يبدو لكم من المهمات في هذه النواحي

والجهات ليقضي بعون الله بمجرد الاعلام ، والسلام خير مبدأ وختام .(١٢)

هذا من المحب
الواثق بالله عبده ثويني بن سعيد بن سلطان
تحرير ١٤ في شوال المكرم سنة ١٢٦٦

لقد تضمنت مذكرة معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، معلومات مهمة عن احوال الاسرة الحاكمة للسلطنة العمانية ، منها ان السلطان سعيد كان يميل الى اشراك ابنه الصغير ثويني في تدبير شئون الادارة في مسقط اثناء غيابه فجعله وكيلا عنه مما أثار حفيظة ابنه الكبير هلال واوغر صدره فهرب الى مصر ، ومكث هناك مدة من الزمن بأمل تحقيق مطالبه الشخصية ولكن بدون جدوى ، اذ انه لم يجد اذنا صاغية لمطالبه ، فشدّ الرحال الى انجلترا ، وبعد مرور سنتين على مكوثه في انجلترا عاد الى مسقط بوساطة الحكومة البريطانية ، بيد ان والده لم يغير موقفه منه ولم يسند اليه اي عمل اداري او رسمي .(١٣)

ومن الجدير بالذكر هنا ان السيد سعيد بن سلطان كان له عدد كبير من الابناء من بينهم هلال وخالد وثويني وتركي وبرغش ، وانه كان على خلاف عميق مع ابنه البكر هلال تسبب في حرمانه من ولاية العهد . اما اسباب الخصام العائلي فتعود على ما يبدو الى ان الابن الاكبر يعتبر في قصور الملوك والسلاطين موضع ريبة ابيه وشكه ، وخصوصا اذا امتلك الابن قدرا من الشجاعة وعلو الهمة وسعة الطموح وكانت ام خالد الاخ الاصغر لهلال ، ذات حظوة ونفوذ لدى زوجها السلطان فاستغلت منزلتها لتحصل لأبنها على ولاية العهد ، بالرغم من كونه غير محبوب من الناس لانهماكه في التجارة وجمع المال ، في حين اتصف هلال بالشجاعة والفروسية ، فحظي بحب الناس واحترامهم ، الا ان ميل ابيه الى اخيه خالد وتفضيله عليه دفعه الى الشكوى ثم المعارضة فالتمرد .

وزاد الطين بلة اكتشاف السلطان سعيد قيام صلات وثيقة بين ابنه هلال والقنصل الفرنسي في زنجبار ، فازدادت مخاوفه من ابنه الاكبر وشكوكه فيه . وكان السيد سعيد يشعر بالشك والريبة في نوايا الفرنسيين تجاهه . تلك النوايا المتمثلة بسعيهم الى الاستحواذ على املاكه في افريقيا الشرقية ، لذا اقدم في عام ١٨٤٤ على استشارة الحكومة البريطانية برغبته في ان يرثه على ملكه في عمان ابنه ثويني ، وعلى ملكه في افريقيا الشرقية ابنه خالد . وكان جواب الحكومة البريطانية انها لا تتدخل في الشئون الداخلية للسلطنة ،

ولكنها نصحت السلطان سعيد بصورة غير مباشرة بضرورة المصالحة والتفاهم مع ابنه .

ويبدو ان سيل غضب الأب على ابنه قد بلغ الزبى عندما قام هلال في شهر ايلول من عام ١٨٤٥ بزيارة سرية مفاجئة الى لندن ، فصمم على حرمان هلال من حقوقه ، وتعيين ابنية ثويني وخالد وكيلين له في مسقط وزنجبار وعند عودة هلال الى زنجبار على ظهر باخرة بريطانية في شباط ١٨٤٦ ازداد والده حنقا عليه وضاق منه ذرعا ، فنفاه عام ١٨٤٩ الى جزيرة لامو حيث مكث فيها ولم يغادرها الا لأداء فريضة الحج ، فوافته المنية في ٢٢ ايلول ١٨٥١ في مدينة عدن في طريقه الى مكة المكرمة .(١٤)

نعود الى مذكرة معشوق باشا لنستعرض بعض الجوانب الخفية من الصراع الدائر بين النفوذين البريطاني والامريكي في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي . فقد ذكر معشوق باشا ان احدى السفن الامريكية جاءت الى سواحل عمان واخذت أعدادا كبيرة من العبيد ، وان هذا العمل اثار استياء وعدم رضا قائد الوحدة البحرية البريطانية المتواجدة في هذه المياه ، والمؤلفة من سفينتين من نوع «بيلك» وطلب القائد المذكور من سلطان مسقط منع الامريكان واهالي السلطنة الذين يتعاطون هذه التجارة ، استنادا الى الاتفاقية المعقودة بين الطرفين بخصوص العمل المشترك من اجل منع ممارسة تجارة العبيد في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية .

وقد اجاب السلطان سعيد بعدم امكانية منع هذه التجارة داخل سلطنته ، وعدم اقتداره على منع الامريكان من ممارستها .

وبالفعل اخذ الامريكان ما يشاؤون من العبيد ، واثناء مغادرتهم السواحل المذكورة لم يفعل القائد البريطاني سوى الادعاء بأنه سوف يتعقب السفن الامريكية ويمنع نشاطها ، بيد انه لم يصنع شيئا ، بل استمر الامريكان بمزاولة تجارة العبيد في السواحل المذكورة وداخل السلطنة ، مما اثار الجدل المستمر بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط .(١٥)

والمعروف ان مسقط كانت تعتبر سوقا كبيرة من اسواق بيع الرقيق وتصديره الى اوربا وامريكا ومدن الخليج العربي والبصرة وبغداد . وكان حكام عمان يمارسون هذه التجارة لحسابهم الخاص ، ويحصلون على دخل سنوي يقدر بثلاثة عشر ألف باون . ذكر كرزن (Curzon) ان ايراد السلطان سعيد

من تجارة الرقيق قبل الغائها كان يشكل ربع ايراده الاجمالي البالغ ثمانين الف باون سنويا . واستنادا الى معلومات شركة الهند الشرقية عام ١٨١٢ فان عدد الرقيق المصدر من زنجبار الى مسقط والهند وجزر موريشيوس يتراح بين ٦٠٠٠ - ١٠٠٠٠ نفر سنويا ، وان عدد السكان الاحرار في هذه الاماكن لا يتجاوز ٢٥٪ من التعداد العام للسكان ، ومن المألوف هناك ان يمتلك بعض الاشخاص من الاثرياء حوالي ٨٠٠ ـ ٩٠٠ نفر من العبيد .[١٦]

لذلك خسر السلطان سعيد موردا ضخما عند توقيعه معاهدة ١٨٢٢ مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق ، واصبح لسفن الأسطول البريطاني الحق في تفتيش السفن المشتبه بتعاطيها هذه التجارة المحرمة دوليا . كما أثارت هذه المعاهدة استياء التجار العمانيين الذين كانت تجارة الرقيق تشكل مهنتهم الرئيسية ، ومعارضة رجال الدين المتعاطفين مع التجار ، ولذا فان حجما واسعا من هذه التجارة ظل مستمرا ، مما تطلب التأكيد على تحريم تجارة الرقيق بالمعاهدات المبرمة في اعوام ١٨٣٩ و١٨٤٥ و١٨٧٣ .

ولكن نجاح الفرنسيين في ابرام معاهدة مع السيد سعيد عام ١٨٤٤ منحتهم الحصانة الدبلوماسية ، وامنت لهم ولتابعيهم الحماية من المتابعة والتفتيش ، مما ادى الى استمرار تجارة الرقيق تحت العلم الفرنسي ، ولم تستطع صرامة معاهدة ١٨٤٥ مع انجلترا مكافحتها والقضاء عليها نهائيا .[١٧] ومما يجدر ذكره هنا ان الفرنسيين كانت لهم علاقات تجارية مبكرة مع عمان واثناء الحملة الفرنسية على مصر وخشية بريطانيا من سيطرة الفرنسيين على طريق الهند سارعت الى عقد معاهدة مع عمان في ١٢ تشرين الاول ١٧٩٨ حصلت بموجبها على حق فتح وكالة لها في بندر عباس تكفلت بحمايتها ذاتيا . وبعد عامين عقدت معاهدة ثانية تضمنت وجوب وجود وكيل بريطاني مقيم في مسقط ، الا ان هذا البند من المعاهدة لم يدخل حيز التنفيذ الا بعد مرور اربعين عاما .

ويبدو ان الحكومة البريطانية ، حتى عام ١٨١٦ ، كانت غير راغبة في التدخل المباشر بشئون عمان ، ليس عزوفا عن مبدأ التدخل بشئون الغير ، وانما لخوفها من مغبة التورط ولقصور رؤيتها عن ادراك نطاق مصالحها الحقيقية في تلك المنطقة الحيوية ، ومقدار الفوائد المتحققة نتيجة هذا التدخل . وقد تصدت سفن بعض المواطنين من العمانيين والقواسم للسفن الانجليزية وانزلوا بسفن اعدائهم خسائر جسيمة ، سواء

اكانت تجارية او حربية ،[١٨] لذلك اطلق الانجليز على ساحل عمان الذي يمتد غربا الى شبه جزيرة قطر اسم «ساحل القرصنة» ، وبعد اخضاع العمانيين والقواسم لمشيئتهم وتقييدهم باتفاقيات غير متكافئة اطلقوا على الساحل نفسه اسم «ساحل عمان المهادن» او «ساحل عمان المتصالح» .[١٩]

وعندما اقتنع سلطان عمان بعدم جدية الانجليز والايرانيين في تحالفهم معه ، لكون كل واحد منهم كان يبحث عن تأمين مصالحه الذاتية في ميدان الصراع ، عاد مجددا لمغازلة الفرنسيين ، وعقد اتفاقا معهم في ٣٠ آذار ١٨١٧ ظل معمولا به حتى توقيع المعاهدة التجارية الفرنسية ـ العمانية عام ١٨٤٤ .[٢٠]

وبعد نجاح قوات محمد علي باشا في احتلال الدرعية واسر عبدالله بن سعود (١٨١٨ ـ ١٨١٩) وجد السيد سعيد بن سلطان ان الوقت قد حان للقضاء على القواسم بمعاونة القوة البحرية البريطانية [٢١] فتم له ما اراد هذه المرة بالرغم من المقاومة الضارية للقواسم الذين اجبروا على توقيع معاهدة في ٨ كانون الثاني ١٨٢٠ تعهدوا بموجبها بعدم ممارسة اعمال الغزو في البر والقرصنة في البحر مستقبلا .[٢٢] وفي تموز ١٨٢٦ حاول السلطان سعيد محاصرة بوشهر والاستيلاء عليها ولكنه عدل عن ذلك بناء على طلب من المقيم البريطاني ، وقد تمكن من اسر حاكمها الايراني الذي كان مبحرا الى بلاده ، ومكث في الاسر عدة اشهر . كما ارسل في تشرين الثاني من السنة ذاتها حملة بحرية الى البصرة لارغام الوالي العثماني على دفع المنحة السنوية التي قررها السلطان مصطفى الثالث عام ١٧٥٦ الى الأمام احمد بن سعيد مقابل نصرته للبصرة عند حصار الايرانيين لها .[٢٣]

وخلال السنوات الممتدة بين ١٨٢٨ ـ ١٨٣٨ تمكن سلطان عمان من بسط نفوذه على ساحل افريقيا الشرقي فاستولى على ممباسة وزنجبار .

ومن الجدير بالذكر ان بريطانيا كانت تعتمد على سعيد بن سلطان للحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي بما يؤمن استمرار المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية ، لذلك قدمت اليه الدعم والاسناد المباشر وغير المباشر في صراعه مع القواسم وآل سعود ، ومع الطامعين في السلطة من ابناء اسرته وغيرهم من زعماء القبائل في السلطنة .[٢٤]

وازاء تصاعد نشاط محمد علي باشا ونزوعه نحو تكوين دولة كبيرة تضم شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب ، اضافة لمصر والسودان ،

اقتنعت حكومة الهند البريطانية بضرورة اقامة علاقات اوثق بين سلطنة عمان وبومباي ، فقررت ارسال وكيل بريطاني الى مسقط ، وبناء على ذلك فقد عين الكابتن همرتون قنصلا بريطانيا في عمان عام ١٨٤٠ ، ولكن اتخاذ السلطان سعيد زنجبار مقرا لحكومته في ذلك الوقت جعل القنصل المذكور يتجه اليها ويتخذها هو الآخر مقرا له .(٢٥) .

اسطول البصرة ومحاولات تطويره

ذكرنا في بداية البحث ، ومن خلال عرض ما ورد في تقرير درويش باشا ، ان اسطول البصرة لم يقم بدور مؤثر في مياه الخليج العربي من النواحي السياسية والعسكرية والتجارية ، وانه كان عاجزا حتى عن تأمين الحماية للبصرة ذاتها بسبب تدهوره وتردي احواله فنيا ونوعيا ، كما وكيفا ، وقد اشرنا الى اسباب هذا التدهور والتردي ، ولا نجد ضرورة لتكرار ذلك .

كان يوجد في ترسانة البصرة اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر سبع سفن احداها تصلح للتجارة البحرية بعد صيانتها وتسمى «فتح علي» والست الاخرى تصلح للتجارة النهرية ، وهي : بتار وفتح خيبر وتكبير وبغداد وعطية الرحمن وصالحي . وبناء على طلب كل من والي بغداد وقائد اسطول البصرة من الصدارة الموافقة على شراء خمس سفن صغيرة إحداها من نوع «قروت» ، واثنتين من نوع «بريق» ، واثنتين من نوع «اوسقونة» وكذلك سفينتين كبيرتين نهرية وبحرية ، فقد تمت مفاتحة الجهات المعنية في لندن لبناء السفينتين الاخيرتين ، وتقرر تصنيع السفن الخمس الاخرى في ترسانة اسطنبول .(٢٦)

وبناء على مقترحات مجلس البحرية في الباب العالي الواردة في المذكرة المرفوعة الى الصدارة بتاريخ ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م من قائد (قيودان) البحرية العثمانية سليمان باشا والمقترنة بموافقة الصدارة في السابع من جمادى الثانية ، ومصادقة السلطان في الثامن منه تقرر ما يلي :

١ ـ تعيين قائد السفينة الحربية «مسعودية» ميرالاى بيربك قائدا لاسطول البصرة ، ومنحه صلاحية اعادة تنظيم القوات البرية وتعمير السفن الموجودة في ترسانة البصرة ، ومنحه كذلك رتبة «رياسة همايون» .

٢ ـ تعيين رستم اغا ، وهو احد ضباط البحرية في اسطنبول ، مساعدا لقبطان البصرة ، ومنحه رتبة «بكباشي» .

٣ ـ ارسال مجموعة من الضباط والمراتب من صنف البحرية الحربي والفني وكما مبين ادناه :

الرتبة	الصنف	العدد
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشي	حربي	١
ملازم	حربي	١
جاوش	حربي	٥
اونباشي	حربي	٥
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشي	انشأت	١

جنود فنيين حدادة نجارة بناء عدد مناسب[٢٧]

تم تعاقد مجلس البحرية مع احد التجار الاجانب المدعو «قره ين» لاستيراد اربع بواخر من انجلترا لاستخدامها في البصرة وجدة ونهر الطونة ، مع آلاتها وادواتها ولوازمها الأساسية والاحتياطية كافة ، مقابل ١٥٦٥٠ كيس [٢٨] وقد تضمنت المقاولة المعقودة بين الطرفين في ١٧ رمضان ١٢٦٧ هـ / ١٦ تموز ١٨٥١ م تعهد الطرف العثماني بقيام خزينة الدولة المركزية بدفع ١٢٠٠٠ كيس من اصل المبلغ المذكور على شكل اقساط شهرية اعتبارا من شهر تموز ، وبمعدل ٧٥٠ كيسا للقسط الواحد ، اما المبلغ المتبقي فيدفع بنسبة الأقساط ذاتها من قبل خزينة ترسانة اسطنبول ، على ان لا يطلب الطرف الثاني اي شيء كتعويض للضرر والخسائر التي قد يدعي حصولها عند تسديد مستحقاته عن طريق النقد او القوائم او اي وسيلة اخرى . كما نصت المقاولة على وجوب تسليم الباخرتين لأسطول البصرة بعد مرور ثمانية شهور من تاريخ ابرامها .[٢٩]

ولكن الطرف العثماني لم يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية حسب المواعيد المقررة بين الطرفين ، ففي ظرف ثمانية شهور سددت وزارة المالية ٢٢٥٠ كيسا من اصل ستة آلاف كيس واجبة الدفع خلال المدة المذكورة ، مما ادى الى تأخير تسليم الباخرتين .[٣٠]

واستمر الحال على هذه الشاكلة لعدة سنوات ، بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية ، ولانشغالها بحرب القرم وغيرها من الحروب الخارجية والفتن والاضطرابات الداخلية ، وما تعرضت له من مصاعب وعقبات ومعوقات مقصودة من جانب انجلترا وغيرها من القوى البحرية التي كانت لها مصلحة في ابقاء الأسطول العثماني في البصرة على تخلفه وترديه ، لكي تتحرك في مياه شط العرب والخليج العربي بحرية تامة ودون مضايقة او رقابة او منافسة عثمانية .

وعند ورود رسالة سلطان عمان جدد والي بغداد مطالبته بارسال عدد من السفن من ترسانة اسطنبول ، او بالشراء من انجلترا وبومباي لتعزيز اسطول البصرة ، واستمالة السيد سعيد بن سلطان . كما اعلم الصدارة بأن من مقتضيات المصلحة العامة للدولة ارسال مبعوث مناسب ، او قائد اسطول البصرة القومند ان بيربك الى المنطقة المذكورة ، وارسل بالفعل رسالة اخرى الى حاكم عمان تضمنت تبريكه وتنهئته بمناسبة عودته الى مسقط ، كما تضمنت عبارات التلطيف والمجاملة دون التطرق الى اي شيء آخر .(٣١)

وفي الباب العالي تقرر اجابة متصرف البصرة بتخويله اتخاذ التدابير المؤدية الى جلب حاكم مسقط واستمالته الى الصف العثماني ، واعطائه التأمينات والتأكيدات اللازمة لتحقيق هذا الهدف ، لحين تشكيل القوة البحرية المطلوبة في خليج البصرة .(٣٢) .

وكان متصرف البصرة معشوق باشا قد اعد دراسة مفصلة الى الصدارة تضمنت جملة من المقترحات لأحياء اسطول البصرة ، وتنشيط الحركة التجارية مع الهند ووضع اسس جديدة لدور عثماني مؤثر في الخليج العربي (٣٣) وتتمثل هذه المقترحات بالامور التالية :

١ ـ بناء خمس سفن احداها بحرية مسلحة لمقاومة القراصنة ، والاربع الاخرى نهرية من نوع (قروت ، وبريق ، واوسقونة) ، واقترح ثلاثة طرق لتأمين الحصول على هذه السفن وهي : المبادرة ببناء هذه السفن في ترسانة البصرة ، ويتطلب ذلك جلب الأخشاب والمواد الاخرى اللازمة لبناء السفن من الهند مباشرة او عن طريق الكويت ، وكذلك جلب عدد من العمال والمهندسين من الهند او اسطنبول . والطريق الثاني هو استيرادها من احواض بناء السفن في بومباي وكلكتا ! او عن طريق بنائها في ترسانة اسطنبول واضاف ان طريق الشراء الجاهز أو التوصية على بنائها بالمواصفات المطلوبة من الهند يوفر وقتا اقل وكلفة تقل بنسبة ٣٠٪ مما لو تقرر بناء هذه السفن في البصرة او اسطنبول او انجلترا كما ان الاخشاب الهندية المستخدمة في صناعة السفن اكثر مقاومة من الانواع الاخرى وقد استقى معشوق باشا هذه المعلومات من قبطان السفينة الانجليزية العاملة في نقل البريد البريطاني بين الهند وبغداد وكذلك من التجار المترددين على الموانىء الهندية .

٢ ـ تعيين قنصل «شهبندر» عثماني في ميناء بومباي لرعاية المصالح العثمانية في الهند ، كالقيام بمعاملات بناء وشراء السفن من الموانىء الهندية ، وحماية مصالح التجار من التبعية العثمانية المترددين على الموانىء المذكورة وانقاذهم من الاضطرار الى قبول الحماية البريطانية تحت مغريات الامتيازات والضمانات والتسهيلات التي يحصلون عليها من جراء ذلك سواء في الموانىء الهندية او في عرض البحار . في حين يلاقي التجار واصحاب السفن العثمانيين الرافضين قبول الحماية الأجنبية صنوف الأذى والمعاملة الجافة في الموانىء الهندية ، بقصد ارغامهم على قبول الحماية البريطانية وطلب من الباب العالي ان تقوم وزارة الخارجية العثمانية بلفت نظر سفارة انجلترا في اسطنبول وتنبيهها الى العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه السياسة التعسفية .

٣ ـ وضع النجمة العثمانية على مقدمة السفن التي يمتلكها رعايا الدولة العثمانية كافة وتزويدهم مجانا بالاعلام العثمانية لرفعها فوق ساريات سفنهم واوامر تحريرية باللغتين العربية والتركية تتضمن منح حامليها الحرمة والرعاية عند دخولهم المياه العثمانية في شط العرب وسائر الجهات الاخرى . وقد اتخذ معشوق باشا هذا الاجراء كرد وقائي على قيام قائد الاسطول البريطاني المتجول في الخليج العربي وساحل عمان بمحاولة فرض الحماية البريطانية على اهالي الكويت والبحرين اذ ان القائد المذكور كلف اهالي الكويت والبحرين قبول الحماية البريطانية مقابل تأمين سلامة سير سفنهم بحرية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي وطلب منهم اجابته خلال ستة اشهر . ولكن اهالي الكويت والبحرين رفضوا العرض البريطاني بطريقة دبلوماسية .

٤ ـ تأسيس اسطول حربي عثماني يتألف من عدة سفن مسلحة للتجوال في مياه شط العرب والخليج العربي لتأمين الحماية للسفن التجارية العثمانية ولمدينة البصرة بالذات ، وكذلك تزويد البصرة بقوة عسكرية برية اضافية لما لذلك من اهمية في امتداد النفوذ العثماني الى الكويت والحسا والقطيف والوقوف بوجه التوسع الايراني .

ومن الجدير بالاشارة ان الدولة العثمانية لم تكن تمتلك اية سفينة بحرية في مياه الخليج العربي ، حربية كانت ام تجارية وكان التجار والحجاج من رعايا الدولة العثمانية يركبون السفن البريطانية الى ميناء جدة بقصد الحج او الى بومباي بهدف المتاجرة وقد خصص الانجليز سفينة بحرية للقيام برحلة سنوية واحدة بين البصرة وجدة في موسم الحج ، مرورا بمينائي بوشهر ومسقط ، وكانت هذه الرحلة تستغرق اثني عشر يوما للذهاب فقط وحققت في عام ١٢٦٦ هـ / ١٨٥٠ م ايرادا مقداره ٣٥٠٠٠ ربيه ، من نقطة انطلاقها في ميناء البصرة ، يضاف الى ذلك ما حققته من ايرادات مضاعفة اثناء مرورها بمينائي بوشهر ومسقط .

لذا طالب معشوق باشا حكومته المركزية بشراء سفينة بحرية من انجلترا او ارسال احدى السفن البحرية الموجودة في ترسانة اسطنبول لاستخدامها في الملاحة مع ميناء جدة في موسم الحج ، بمعدل رحلة او رحلتين ومع بومباي بمعدل اربع رحلات سنويا واكد على ما سوف تحققه هذه العملية من فوائد مادية ومعنوية ، حيث ستمخر عباب البحر امام السواحل العربية والهندية سفينة يرفرف على ساريتها العلم العثماني . ومن الناحية العسكرية والادارية فان هذه العملية لو تمت فإنها سوف تحقق اتصالات ومخابرات سريعة بين اليمن والبصرة او الحجاز ، ومنها الى اسطنبول .[٣٤]

الهوامش

(١) يمثل الخليج العربي احد الطرق العالمية القديمة الثلاثة (الجنوبي والاوسط والشمالي) التي تربط الشرق بالغرب ، فالطريق الاوسط للتجارة الشرقية يمر عبر الخليج العربي وسهول العراق وبلاد الشام الى موانىء الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وقد قام هذا الطريق بدور هام في النقل التجاري والبشري والحضاري منذ اقدم العصور حتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، ففقد كثيرا من اهميته واستطاع العرب، اعتمادا على سواحلهم الطويلة التي تسيطر على بعض مداخل ومخارج التجارة الشرقية في البحر العربي والمحيط الهندي ، خلال حقبة طويلة من التاريخ الانساني ان يكونوا اسيادا للتجارة والملاحة المارة عبر الطرق البحرية والبرية الموصلة بين العالمين القديم والجديد وانتشرت مسكوكاتهم ومعارفهم على هذه المسالك بين الصين وشبه جزيرة اسكندیناوة مما يدل على عمق نفوذهم الاقتصادي وتاثيرهم الحضازي .
انظر : د. ابراهيم شريف : الشرق الأوسط «دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق» ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) كارستين نيبور : مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري ، (بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٢٠ . ستيفن همسلي لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ، (بغداد ، ١٩٨٥) ط ٦ ، ص ٣٦٢ .
د . عبدالامير محمد امين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٩ ـ ١٢ ، ٦٥ ، ٧٤ ـ ٧٥ .

(٣) د . عبدالامير محمد امين : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٨٣ .

(٤) الكارة : احد انواع المكاييل المستخدمة وقتذاك ، وتعادل الف اوقية اسطنبولية .

(٥) ارشيف الباب العالي في اسطنبول/تركيا/ ارادة : مجلس والا ، رقم الوثيقة ٥٥٠٠ .

(٦) ارشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .

(٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/ خارجية ، رقم الوثيقة ٢١٢٦ ، لف ٦ ، (من

المأمور المخصوص لتحديد حدود ايران محمد امين درويش باشا الى الصدارة ، ٢١ ربيع الآخر ١٢٦٦ هـ /٦ مارس ١٨٥٠م) .

(٨) ارشيف الباب العالي : ارادة/ خارجية ، رقم الوثيقة ٣٢٧٩ ، لف ١ (مذكرة درويش باشا الى متصرف البصرة معشوق باشا ، غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م) .

(٩) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ /١٥ حزيران ١٨٥١ .

(١٠) ينظر : رود ولف سعيد روث : سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ ـ ١٨٥٦ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) ، ص ٤١ ـ ٤٧ . د . جمال زكريا قاسم دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٠ ـ ٤٦ . عايشة السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٨٢ وما بعدها .

(١١) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٣) .

(١٢) ارشيف الباب العالي/ ارادة/ داخلية رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٤) .

(١٣) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ .

(١٤) رود ولف سعيد روث : المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ . السيدة سالمة بنت السيد سعيد: مذكرات اميرة عربية ، ترجمة عبدالمجيد القيسي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٤ ـ ١٨٨ .

(١٥) ارشيف الباب العالي : الوثيقة نفسها .

(١٦) J. R. Wellstead, Travels in Arabia (London 1838) p. 387
وكان ويلستيد ، وهو ملازم في البحرية الهندية ، قد وصل الى مسقط في ٢١ تشرين الثاني ١٨٣٥ . رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١٥٩ .

(١٧) رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ـ ١٦٤ .

(١٨) رود لف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٧ ـ ٧٦ ـ ١٥٦ .

(١٩) د . ابراهيم شريف : الشرق الاوسط ، ص ٢٥ .

(٢٠) رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢١) كانت القوة العسكرية البريطانية بقيادة السير دبليو كرانت كير ، وتضم السفينة ليفربول المجهزة بخمسين مدفعا ، والسفينة ايدن المجهزة بستة وعشرين مدفعا والسفينة كورلا المجهزة بثمانية عشر مدفعا ، وست سفن اخرى وكان على ظهرها ١٦٠٠ جندي من الاوربيين و ١٤٠٠ من الهنود ، زيادة على ثلاث سفن عمانية و ٤٠٠٠ جندي عماني . ينظر : رود ولف : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢٣) من المعروف ان الاسطول العماني تدخل كذلك في ايلول ١٧٧٥ لفك الحصار الذي فرضه الحاكم الايراني صادق خان على البصرة ، واخذت القطعات البحرية العمانية موقعها في مدخل شط العرب وسيطرت على الشط لفترة من الزمن ، وقامت بتامين وصول المؤن والذخيرة الى المدافعين عن البصرة فعززت صمودهم بوجه الغزاة الفرس . ولكن الاسطول العماني انسحب فجاة وعاد الى بلاده . ويبدو ان ابتعاد الاسطول عن قواعده وخوف سلطان عمان من احتمال قيام الايرانيين بالتعرض الى عمان نفسها وربما مداخلة الانجليز ومشورتهم دفعت العمانيين الى الانسحاب وكان الاسطول العماني المرابط بمدخل شط العرب مؤلفا من عشر سفن كبيرة وعدد اكثر من الغلافات والترانكي والسفن الصغيرة الاخرى . وقد ادت هذه المشاركة العمانية الى حدوث خلاف عنيف بين سلطان عمان ووالي بغداد وذلك لادعاء الاول ان له ديونا في ذمة الوالي الذي اضطر الى تسوية خلافه مع حاكم عمان تجنبا لمجابهة بحرية لا قبل له بها . ينظر : رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٨٦ . د . عبدالامير محمد امين : المصدر نفسه ، ص ٧٣ ـ ٧٨ .

(٢٤) رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، ١٢٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢٦) ارشيف الباب العالي : ارادة/ مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

(٢٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١١٠٠٧ (تلطيفات لف ١) ، مذكرة قيودان سليمان باشا الى الصدارة ، ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥ هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م .

(٢٨) الكيس : وحدة حسابية عثمانية تساوي ٦٠٠٠٠ اقجة ، او ٥٠٠ قرش او ٢٠٠٠٠ بارة ، والكيس الرومي يساوي ٥٠٠٠٠ اقجة . ينظر : د . مهدي جواد حبيب البستاني : ازمة النقود في ولاية بغداد ومحاولات معالجتها ١٨٢٠ ـ ١٨٥٦ ، المجلة التاريخية ، تونس، العدد الاول .

(٢٩) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ٢) .

(٣٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ١) . من ناظر المالية الى الصدارة ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ .

(٣١) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ٣ .

(٣٢) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ ، (بحرية لف ٤) . مذكرة الصدارة الى السلطان ومصادقة السلطان عليها ، ١٩ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ .

(٣٣) ارشيف الباب العالي : ارادة/ مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

(٣٤) ارشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .